العام الهجري

عبرة العبر

للأستاذ عبد العزيز البشري

هذه الشمس تطالع العالم بجفنها من جانب الأفق. وما تلبث أن تسلل منه رويداً رويدا، حتى يستوى إطارُها على متنه. وما تزال في خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها المسجدية. وكذلك ما تزال تمطُل فيها وتبسُطها من الشرق إلى الغرب. وهكذا ظلّ تحبو في مدرجها إلى قبة الفلك. وكلما خطت بالزمن خطوة، رأيتها تشتدّ وتترعرع، ويسطع ضوؤها، ويحمى وهجها إلى أن تبلغ الندوة، وتستوى على أعلى الأوج.

وأنت خبيرٌ بأنه ليس بعدَ الصعود إلاّ الهبوط، فهذه سنّة الله تعالى في كونه؛ وكذلك تجرى سنّتُه على هذا الكائن العظيم؛ فليس بعجيب أن يَدعو الفلكيون هذه اللحظة، أعنى لحظة استواء الشمس في أعلى الأوج بالزوال، إذ كان بدء الزوال، هو غاية الكمال!

وهذه الشمس تمشي إلى الغرب في منحدرها كذلك رويداً رويدا، كما تداخلها الشيخوخةُ فالهرم رويداً رويدا؛ حتى إذا اصفرّ لونها، وبَردت السنُّ من جرمها، جعلت تتدلى في قبرها من مغرب الأفق مستهلةً مستأنية؛ وهكذا تغيب في لحدها، غير تاركة من التُّراث إلاّ صُبابةً من الذهب المذاب، سرعان ما تتبخّر في حلك الظلام. وقد تترك تراثها الفضىّ على صفحة القمر، يرفد العالَم به بعض ليالى الشهر.

تلك سيرة الشمس كلّ يوم: ميلادٌ فترعرع ففتوّة، فشبابٌ وفراهة وقوة، وكهولةٌ فشيخوخة فهَرم، فتندسّ في النهاية تحت الرجَم. وسبحان الحىّ الذى لا يموت!

على أنها في جميع مراحل حياتها عاملةٌ جادّة جاهدة، لا تنى عن السعي لحظةً واحدة. فها هى ذى تستنبت الأرض، وتُزكى الزرع، وتبسّق الشجر، وتنضج الثمر، وتفتّح من أكمامه الزهر. ثم ها هى ذى، في عنفوانها، ما تفتأ تجتذب البخار، عذباً سائغاً من أُجاج البحار[1]؛ حتى إذا انعقد سحاباً، سَحّ فأخضل قفراً وأعشب يباباً. وهذه الأنهارُ الجاريةُ سُموتُها في أقطار الأرض، تبعث أسباب الحياة لكل مُتهيّئ للحياة. وكذلك لا ننسَ أنها ما تبرح تعمل عامّةَ النهار، في تطهير الأرض مما يعلَق بجسدها من الأخباث والأوضار.

فأىّ عنصر، لعمرى، من حياة هذا العالَم يمكن أن يغنى عن الشمس؟ ألا إنها لمصدَر الحياة جميعاً؛ فحقّ للعالم أن يقول: إنما الحياة الشمس، وإنما الشمسُ الحياة!

* * *

أيتها الشمس! ما أحسنك وأجلك، وما أطيبك وأكرمك! تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر، في غير وَنًى ولا سأم، ولا ضجر ولا بَرَم، ولا صلف ولا استعلاء، ولا زهو ولا كبرياء. ولو شاء الله لأهلك بحرك بعض الأقوام، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبك جميع الأنام!

* * *

وبعد، فما أخلق الذين يعسهم حظ من المجد في هذه الدنيا،

---

(١) كان المعرى، رحمة الله عليه، لا يؤمن بهذه القضية: «استقاء العذب من أمواه البحار»، إذ تراه يقول في بعض شعره:

وقد يجتدى فضل الغمام وإنما ... من البحر، فيما يزعم الناس، يجتدى

كما يقول في بعض رسائله: (أو كالهواء، في مذهب لا أعتقده، وقول سواى من يعتقده، يجتنب أجزاء البحار، فيستقى من تحته عذب الأمطار).

والذين يمسون صدراً من السلطان فيها أن يتنحوا لسيرهم من سيرة هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل فى محيطه للنفع العام فى جد ودأب ، مؤمنين كل الإيمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغي أن يكونا ملكا خالصاً للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشيء من الأشياء .

على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا فى جماعة أم فى شعب أم فى شعوب — سرعان ما ينسون كل شيء لأن الأثرة قد ملكت من نفوسهم كل شيء . فنفوسهم هى المبدأ ، ونفوسهم هى الغاية . حتى إذا أجالوا الفكر فى منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون لهذه الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا السعي مراماً لأنفسهم لا لشيء آخر ، وقد يكون هذا المرام ، فى أعف الصور هو إحراز المجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل أن يقع ، فليس أكثر من طريق !

وكيفما كان الأمر ، فإنه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه ، حتى يَوْرم أنفه ، ويتداخله من الصلف والمخيلة ما يملؤه اعتقاداً بأن الرأى فى الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ما سواه لا صلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شراً وفساداً .

ولقد يشتدّ طغيان هذه الخُلّة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغى أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يحري فكرهم بغير ما يجرى به فكره ، وأن تنتهى آراؤهم على غير ما ينتهى إليه رأيه . فإذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما ملتاث ممخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفى الحق أن أكثر من يضمرهم هذا الطغيان ، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون ، عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد !

وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الإيمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لإصلاح ما فسد فى رقعة من الأرض أو فى رقاع الأرض جميعاً ؟ فإليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى علاجه ، والراضى فى إمضائه وإكماله !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأى وصالح المشورة ؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضى به الوحى الذى لا يخطئ أبداً !

فإذا تعاظمك ما يختلف على هذه الأرض من عصور التوّ والطغيان : تخرب العامر ، وتدمّر القائم ، وتُقفر الآهل ، وتراق فيها الدماء بغير حساب ، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب : إذا تعاظمك هذا فى عصور الدهر المتتابعة ، فاعلم أن علته تلك الخُلّة الفاجرة فى الإنسان !

* * *

وأمس ، لقد أتمّت دورةُ الشمس حولاً سلكته فى عقد التاريخ أيضاً ، وآذنتْ العالم بفجر حولٍ جديد

وإن ذاك العام المدبر ، وهذا العام المقبل ، لهما — كما تعلم — من أعوام الهجرة ، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة ، وقد ساد بها الإسلام ، فسعد بسلطانه الأنام

وبعد ، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض جميعاً من ظلم وفساد ، وتصدّع فى النفوس وتضعضع فى الأخلاق ، حتى كاد يُقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بُعث محمد من عند الله حقاً ، فبلّغ رسالته إلى الناس ، كما أوحى إليه بها ربه حقاً ، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والإصلاح والإسعاد

ولا أحب أن أطيل فى وصف ذلك الإصلاح والإسعاد ، فحسبهما أن تنزّل بآياتهما وحىٌ كريم ، من عند الله العلىّ العظيم

وإنما أقف وقفةً قصيرةً عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيّد أحدٌ منهم بوحى سماوى ، ولا حُبّى بالعصمة التى حُبّى بها الأنبياء ، إنما هم أناسيٌّ مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس ، فبأنهم إنما ساروا سيرة هذه الشمس التى تطالعهم كلّ صباح وتغرب عنهم كلّ مساء . على أنها هى إنما تعمل لعالم الأجساد والأجرام ،

أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادّين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يُريدون من ورائه فخراً ولا ذكراً ، لأنهم أشد أمانةً من أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغي أن يجرَّد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدّين بالرأي ولا مستأثرين ؛ بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأي الذي يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأي الجماعة ، فشرعٌ عندهم مشروع ، وقضاء مبرَمٌ محتوم .

يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام . لا كبر ولا مخيلة ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والرقة للضعفاء . وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع . ولعمري ، لتلك أعلى صور الديمقراطية التي يحلم بها أجلّ الفلاسفة من قديم الزمان

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد افتقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلأنهم لم يريدوه ولم يسعوا له ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلاً ولا دقيقاً !

* * *

وبعد ، فلا شك أن مما أصفاهم لطلب النفع العام ، وتجافى بهم عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر للموت . وكيف لهم بنسيانه ، وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة في العالم تموت كل يوم ، بمرأى منهم ، بعد أقوى الحياة ، ولكل شيء نهاية ، ولكل سائلةٍ قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتُوالي سعيها في النفع والتجديد والإحياء ، فإنّ زعيماً لن يعود بعد موته ، ولو لإصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرّب .

فما له ، بعد الموت بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .

عبد العزيز البشري

الكف وأسرار النفس

للأستاذ أحمد السنوسي

إخصائي الحالات النفسية

يحوي أحدث تطورات علم الكف به خرائط واضحة تجعلك بسهولة تترجم خطوط الكف فتكشف بنفسك عن إيحاءات خطوط يدك . فتعرف ما يهددك من الأمراض وتتبع طرق الوقاية منها ، وما يسبب لك المضايقات والعقبات وتقضي عليه . وبذلك يكون لك القدرة على تنمية مواهبك واستعداداتك فتصبح قادراً على السير في الطريق التي تكفل لك الطمأنينة والنجاح في الحياة . يطلب من المؤلف ٣٣ ش الملكة الفريدة ومن المكاتب الشهيرة ثمن النسخة ٥٠ قرشاً و ٣ قروش البريد داخل القطر و ٥ للخارج .